العرب
الخميس 2020/02/13
السنة 42 العدد 11616

# هل تجعلنا الثقافة أكثر إنسانية؟

## البُنى الثقافية تحتاج إلى إعادة نظر مستمرة على ضوء الفطرة السليمة

هل يمكن للثقافة أن تجعلنا أكثر إنسانية؟ وهل يمكن أن تسيء إلى كل ما من شأنه أن يجعل منا إنسانيين؟ ألا يدل التزمّت الديني الذي يدعو إلى القتل، والإدمان على المستحدثات التقنية التي تعزل الفرد على أن الثقافة لا توطّد إنسانيتنا؟ إذا كانت الثقافة، بوصفها مسعى لاكتساب المعرفة والمعاملات الاجتماعية، هي من تجعلنا إنسانيين، أفليست هي نفسها التي يمكن أن تقودنا إلى الوحشية؟

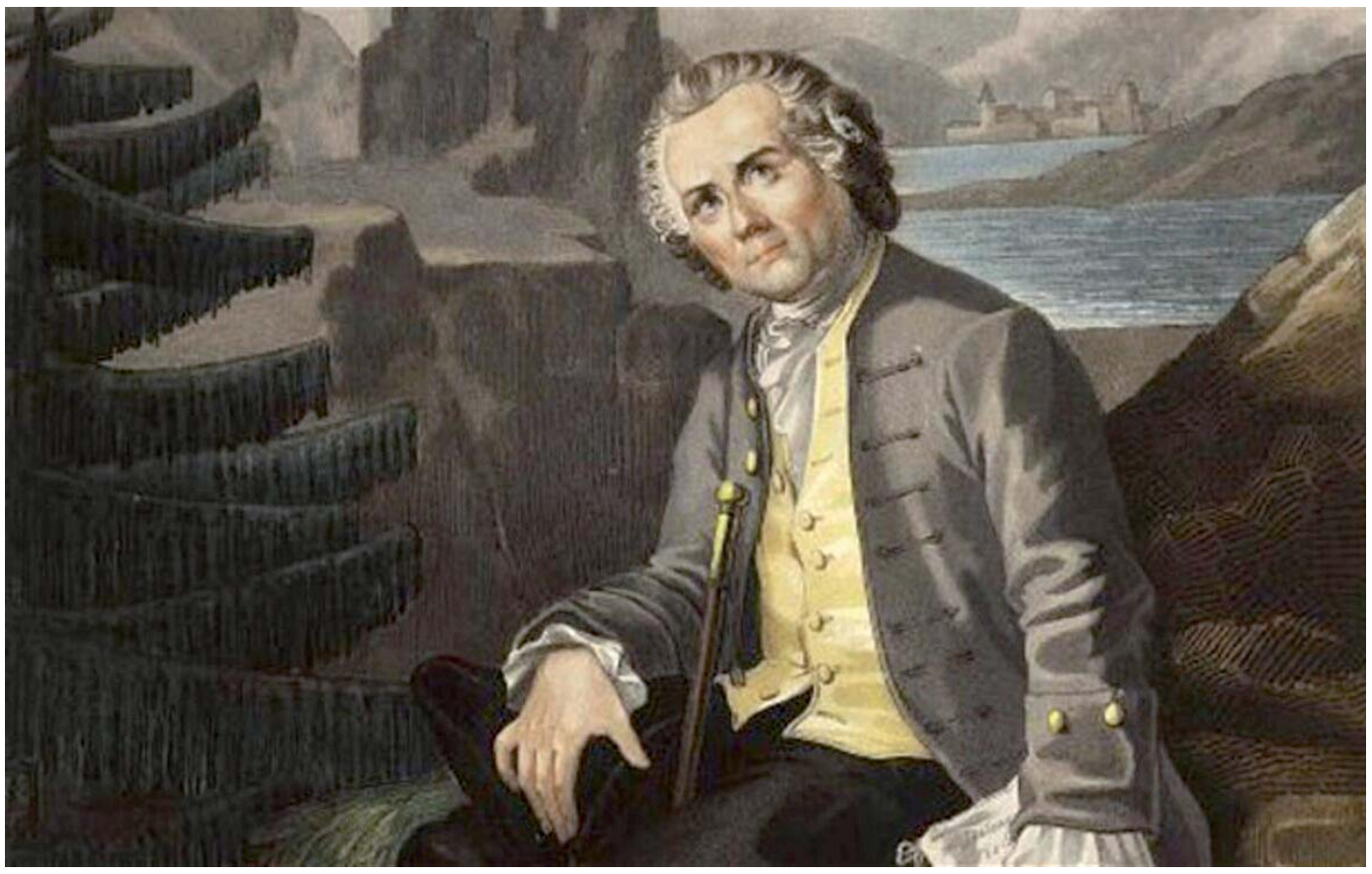

روسو ألّف رسالة في التربية تأكيد على أهمية الفطرة في سلامة البناء الثقافي للإنسان

أبوبكر العيادي
كاتب تونسي

تاريخ الإنسانية هو تاريخ انتزاع النفس من الحتمية الطبيعية، والإنسان لا يكتسب إنسانيته من دون ثقافة، فهي التي تهذّب الطبائع وتنمّي الوعي وتقرّب الأفراد، بيد أن المفكر وعالم الاجتماع الفرنسي لوسيان مالسون أثبت في دراسته عن "الأطفال المتوحشين" أننا نولد قبل الأوان نفسانيا، وأن الطفل الذي تربّيه الذئاب يقلّد سلوكها، ولا يتوصل أبدا إلى اكتساب أسس الثقافة إذا وضع في وسط متحضر. فالطبيعة، بهذا المعنى، عاجزة عن جعلنا إنسانيين، لأن الإنسان ليس كائنا طبيعيا فحسب.

> تنوع الثقافات هو ما يؤكّد إنسانيتنا، وعلاقة تلك الثقافات بالطبيعة عامل مهم في جعلها إنسانية بالمعنى الأخلاقي للكلمة

قد يذهب بعضهم إلى القول إن الطبيعة تستطيع وحدها أن تجعل من جماعة من البشر مجتمعا سعيدا، غير أن هذا ليس مؤكدا إذا ما تُركت تلك الجماعة في وضعها الطبيعي، كما بيّن توماس هوبز بمقولته الشهيرة "الإنسان ذئب للإنسان"، فالاختلاط لا يكفي لأنسنتنا، لأن الخوف يدفع إلى الكراهية، والكراهية تدفع بدورها إلى العدوان، ويغدو من حق كل فرد أن يمارس حقه الطبيعي في الدفاع عن نفسه إذا ما صادف إنسانا آخر، ولولا يقظة العقل التي دفعت الناس إلى الاتفاق على وضع قواهم بين يدي سلطة حاكمة تحقق أمنهم وسلامتهم لانقرض الجنس البشري بالتقاتل. أي أن المرور إلى الوضع المدني هو الذي يتثقف بفضله الإنسان.

وقد أكد هوبز في قصة "ليفياتان" على عجز الطبيعة عن أنسنتنا، وأوضح من خلالها أن الخوف الطبيعي لا يزول تماما، حتى في المجتمع المنضبط، ما دمنا نغلق أبوابنا بالمفاتيح ونشتري الخزائن المصفحة.

وهو ما ذهب عالم الاجتماع الألماني نوربرت إلياس حين بيّن أن تطور الأعراف في الغرب تميز باستبطان الغرائز، إذ لاحظ أن الأفراد يُخفون كلّ ما يشير إلى طبيعتهم الحيوانية، كاستعمال المناديل، وإغلاق الفم عند المضغ، والتعطر، أي أنهم يحجبون عن الآخرين ما يحتفظ به الجسد من طبع، فيغدو الحياء إلزاما اجتماعيا، وتغدو الثقافة إرغاما للذات.

وفي رأيه أننا ينبغي أن نتخلص من أصولنا الطبيعية كي نكتسب إنسانيتنا. غير أن المثال الألماني، وكذا الفرنسي، يطرح أكثر من سؤال: كيف استطاع ذانك الشعبان المثقفان أن يرتكبا أبشع الجرائم؟ وكيف غلبت غرائزُهما ثقافتَهما؟ أليس ذلك دليلا على أن الثقافة وحدها عاجزة عن جعل الأفراد اجتماعيين مدنيين متحضرين؟

إذا سلمنا جدلا بأن الثقافة تخلق إرغامات، لكون التربية هي غَصْب النفس على قبول ما لم تعهده، فهل يعني ذلك أنها تستند إلى أسس يقبلها العقل؟ لقد كان نيتشه يشك في ذلك، فقد أوضح في كتاب "جينالوجيا الأخلاق" أننا يمكن أن نجعل من الإنسان حيوانا يفي بوعوده باستعمال الحديد المحمَّى، وأننا يمكن أن نصنع بالقسوة إنسانا فاضلا.

بيد أن تلك القسوة قد تنبثق في شكل كراهية لدى أولئك الذين يدْعون إلى الخُلق الحميد، أولئك الذين يزعمون أنهم حازوا الحقيقة المطلقة، وصاروا يرغمون غيرهم على اتباعها، ما يعني أن الثقافة في الواقع يمكن أن ترهن قواها الحية، وتجعل من حضارة منضبطة حضارة مهدّدة بالانحطاط. ولا يعني ذلك أنه ينبغي إدانة الأخلاق والعودة إلى وضع طبيعي لم تكن فيه الأخلاق موجودة، بل إن البُنى الثقافية كانت في حاجة إلى أن يعاد النظر فيها على ضوء الفطرة السليمة.

ولهذا الغرض ألّف روسو رسالة في التربية، فأوصى تلميذه المتخيل في كتابه "إميل" بتأخير تعلم الثقافة لدعم صلته بالطبيعة، لأن الطبيعة في نظر روسو هي خير ناصح، فهي تلطّف فينا غريزة الاحتفاظ بعد تجربة الالتحام بها من خلال إيقاظ حس الشفقة فينا. وأن يكون المرء إنسانيا في اعتقاده فذلك نابع من اتّقاد العاطفة.

ولسائل أن يسأل كيف تكون الطبيعة على هذا القدر من أنسنة البشر؟ ربما لأن الإنسان يتعلم التواضع والخشوع عند الاتصال بها، وينمي حس الملاحظة داخله، ويكتشف فيها ثراء أكبر مما يمكن أن تمنحه إياه الثقافة.

وهو ما وقف عليه الأميركي هنري ديفيد ثورو حينما اعتزل العالم وعاش وحيدا قرب بحيرة في والدن، فقد اكتشف إلى أيّ حدّ يمكن للثقافة أن تُفقر علاقتنا بالعالم أو تجعلنا شريرين تجاه بعضنا بعضا، فالطبيعة في رأيه تحض على التأمل والتبصّر، وبذلك تكون مصدر إنسانيتنا الأساس.

ولكن ثمة من يعترضون على هذا الرأي، ويعتقدون أنّ في جعل الطبيعة ضمانة لإنسانيتنا مبالغة. فإدانة انحطاط الأخلاق شيء، والتأكيد على أننا لا يمكن أن نستغني عن الثقافة لنعيش إنسانيتنا شيء آخر. وفي رأيهم أن من الخطأ الفصل بين الطبيعة والثقافة في تطور إنسانيتنا، لأن المكتسبات الثقافية صارت شيئا فشيئا طبيعية، وهو ما أثبته الفرنسي مارسيل موس في كتابه "تقنيات الجسد" حيث ذكر أن الوظائف الطبيعية كالمشي والشرب والنوم هي في الواقع ذات سمات ثقافية محددة، لأن الجسد حسب تعبيره يحمل داخله الإرث الثقافي للأجيال التي سبقته، ولا يمكن بالتالي التمييز بين الطبيعي والثقافي في الإنسان.

ويخطئ من يعتقد أن الثقافات "المتطورة" أكثر إنسانية من سواها، فقد بين مونتاني مثلا أن أكل لحوم البشر الذي كان يثير حفيظة الكونكستادورس وتقزّزهم لم يكن أكثر فظاعة من المحارق التي كانت تنصب لعقاب الهراطقة في أوروبا.

فلا مجال إذن للتمييز بين الثقافات، ولا مجال أيضا للفصل بين الثقافة والإنسانية. في محاضرة ألقاها في منظمة الأمم المتحدة، ونشرها تحت عنوان "العرق والتاريخ" كان ليفي ستروس قد اعترض على فكرة تراتبية الثقافات، فأكد من خلال تجربته الأنثروبولوجية أنه لا وجود لمجتمع إنساني متخلف، وأن البسطاء الذين ينامون على الأرض شبه عراة، لا يقلون إنسانية عن سواهم.

وجملة القول إن تنوع الثقافات هو ما يؤكّد إنسانيتنا، وإن علاقة تلك الثقافات بالطبيعة عامل هام في جعلها إنسانية بالمعنى الأخلاقي للكلمة.

# التراث الشعبي المغربي رأسمال لامادي يقاوم هيمنة العولمة

محمد ماموني العلوي
صحافي مغربي

الدار البيضاء (المغرب) – ضمن الفعاليات الأساسية للمعرض الدولي للكتاب والنشر بالدار البيضاء ألقى مؤرخ المملكة المغربية والناطق الرسمي باسم القصر الملكي، عبدالحق المريني، محاضرة اختار لها موضوع التراث الشعبي المغربي كمكون حضاري للثقافة والهوية المغربية ورأسمال لامادي يحق الافتخار به، وقد عنوّن المريني موضوعه بـ"ومضات على التراث الشعبي المغربي"، لإبراز جزء من هذا المخزون الثري الذي من المستحيل أن تُلم به محاضرة واحدة.

وأوضح المريني أن الموضوع يتطلب محاضرات ومؤلفات كثيرة للإحاطة بجميع جوانبه نظرا لغناه وتعدد ألوانه وسط المجتمع المغربي، وهو تعدد يلفت الأنظار ويثير الإعجاب ويشمل كل العادات والأعراف والتقاليد والمهارات المرتبطة بالفنون اليدوية التقليدية والطب التقليدي والمواسم الخريفية والربيعية والشتوية والمهرجانات الموسيقية الشعبية والأندلسية والمجموعات الغنائية، بالإضافة إلى أطباق الأطعمة بجميع صنوفها وأنواعها.

وفي تقديمه للمحاضرة تساءل الكاتب ياسين عدنان، هل يمكن كتابة تاريخ المغرب الأدبي خارج التراث الشعبي؟ وهل يمكن القبض على مختلف مظاهره المتنوعة والمتشعبة؟ واعتبر عدنان أن السؤال تصعب الإجابة عليه، لكن المريني قادر على تجميع عناصر الإجابة، كونه مهتم بهذا الفن وأثرى الخزانة المغربية بكتابات عالية القيمة منها "مدخل إلى تاريخ المغرب الحديث من عهد الحسن الأول إلى عهد الحسن الثاني"، و"شعر الجهاد في الأدب المغربي"، و"الشاي في الأدب المغربي"، وغيرها من المؤلفات القيمة.

وقال المريني "الثقافة الشعبية المغربية نحيا بها كما تعيش هي الأخرى بنا، وهو ما يتطلب تحمل مسؤولية الحفاظ عليها كونها جوهر هويتنا المشتركة وعماد حضارتنا المنفتحة". ووقف المحاضر على المهارات اليدوية والفنون التقليدية والمواسم بفصولها والمهرجانات بأنواعها والمجموعات الموسيقية والطوائف الدينية مثل: "حمادشة" و"درقاوة" و"هداوة" و"جبالة" وكل ما يزخر به التراث الشعبي المغربي.

كما سرد المريني مظاهر أخرى من الثقافة التي تشمل منشدي المدائح النبوية وحلقات الذكر في الزوايا والمجموعات الموسيقية من قبيل "الدقة المراكشية" التي تعود إلى العهد السعدي، مثلها مثل "كناوة" بوصفها فنا قادما من أعماق أفريقيا، وفد من مالي وغينيا وغانا في العهد السعدي.

وتحدث المؤرخ المغربي عن الفانتازيا المشتقة من الإسبانية والاحتفالات الشعبية من قبيل عاشوراء وشعبانة والسعيلة، بالإضافة إلى الأعياد الدينية والرقصات التقليدية كـ"بوجلود" والمناسبات العائلية مثل الزواج والعقيقة والختان والحسانة الأولى، والصوم الأول في ليلة القدر وثقب الأذنين بالنسبة للإناث.

وتطرق المريني إلى مظاهر أخرى من التراث الشعبي المغربي من قبيل جلسات الشاي وما تعرفه من منادمة واستحضار للنكت والمستملحات وتبادل أطراف الحديث الشيق. كما بيّن كيف أن الأراجيز المغربية تفسح مساحة واسعة لهذه الطقوس الاجتماعية، ولأنواع متعددة من الأطعمة والزردات، متمثلا في هذا الصدد بأراجوزة شاعر فاس عبدالسلام الأزموري.

وسرد المؤرخ عادة تراثية شعبية أخرى ترتبط بالمجتمع الفلاحي، منها "الحادوثة" وهو تعبير محرف للعجوزة، ويعني توديع السنة واستقبال أخرى في 13 يناير، وهو يحمل أسماء أخرى مثل "اسكاس"، وهو يوم التبرك بعطاء الأرض والاحتفال بالسنة الأمازيغية، وفي حال الجفاف يقام ما يسمى بـ"تاغونجة"، حيث يتم إلباس قصبة رداء امرأة وتوضع على رأسها باقة من النعناع وتسمى "عروس المطر"، ويحملها الأطفال متقدّمين موكبا يطوف المدينة طلبا للاستسقاء.

ومن المواسم الفلاحية التي فصل فيها المريني إلى المواسم التربوية، تحدث المحاضر عن "التخريجة"، وهو احتفال بحفظ الطالب لجزء من القرآن الكريم، أو لستين حزبا، حيث يكرّم إلى جانب الفقيه، وتهدى إلى الطالب في هذه المناسبة لوحة بها سور قرآنية مزخرفة من إنجاز فنانين بارعين في الخط العربي.

وأرجع المريني عادة "سلطان الطلاب" إلى ثلاثة قرون مضت بفاس ومراكش، وهي المناسبة التي يقع فيها انتخاب سلطان الطلاب الذي يهديه سلطان البلد كسوة جديدة يؤدي بها الصلاة يوم الجمعة في الجامع الكبير، ويلتقي السلطانان، ويقدّم سلطان الطلاب لائحة من طلبات الطلاب إلى سلطان البلاد الذي يستجيب لها.

وعرّج مؤرخ المملكة المغربية على فن الملحون الذي أرجع أصل الكلمة إلى التلحين لغناء الشعر المنظوم، هذا الشعر الذي تطرّق لكل المواضيع المتداولة من عشق ومديح وغربة وطبخ وتربية وأحداث وطنية، كما توقف عند الأمثال المغربية بوصفها من مظاهر هذا التراث الشعبي الثري، وهي تعبير موجز وبليغ يختزن ثمرات تجربة الشعب المغربي في الحياة التي تداولتها الألسن، كما أنها تشكل وسيلة للتهذيب والتربية الأخلاقية.

> الحكايات الشعبية والأغاني الفولكلورية خزّان مهم لعادات المغاربة وطباعهم وانفعالاتهم وتفاصيل حياتهم اليومية وطرق تعاطيهم مع المحن

ومن المظاهر الأخرى التي سردها المريني، الإرث الشفوي كالحكايات الشعبية والخرافات وهي خزّان مهم لعادات المغاربة وطباعهم وانفعالاتهم وتفاصيل حياتهم اليومية وطرق تعاطيهم مع المحن، كما أنها تختزل الحكمة الناتجة عن التجربة وهي أنجع طريقة للإدراك، حيث يختلط فيها الواقع مع الخيال، ورغم ما يحضر فيها من كائنات خرافية فإنها غير منفصلة عن الواقع المعيش، وقد لعب الحكواتيون وأصحاب الحلقة، دورا مهما في استمرارها وتداولها، ولم يكن من باب الاعتباط أن اعتبرت اليونسكو ساحة جامع الفنا تراثا عالميا.

وختم المريني المحاضرة، قائلا "إن روافد الثقافة الشعبية المغربية بكل أنماطها وأصنافها تعبّر عن تمظهرات اقتصادية واجتماعية وثقافية ودينية وفنية، كما أنها تختزن رموزا كثيرة وإبداعات رائعة، تؤكد على هويتنا وتؤثث تاريخنا وتغني حضارتنا وتربط ماضينا بحاضرنا وتجسد الامتزاج الثقافي المغربي المتعدد الأصول، الأمازيغية والصحراوية والعربية والأندلسية والأفريقية، وهو يتطوّر بشكل مستمر لمواجهة العولمة وهيمنتها، ممّا يجعل المهتمين بالتراث والقائمين عليه يولونه عناية قصوى لأجل حمايته وصونه من الضياع".

ومضات على التراث الشعبي المغربي